جامعة الانبار
كلية التربية للبنات
د.إنعام حميد شرموط

هزيمة المغول في معركةعين جالوت* ٦٥٨هـ-١٢٦٠م

بعد سقوط قلاع الاسماعيلية والخلافة العباسية توجه جيش هولاكو نحو بلاد الشام التي سقطت مدنها الواحدة تلو الاخرى بيسر وسهولة امام قوات هولاكو وبعد استكماله احتلال معظم مدن بلاد الشام عزم على التقدم صوب مصر لذلك نجد ان بعض قادة المسلمين بدأوا يتحسسون ويبحثون في اسباب الهزائم التي مني بها المسلمون ويحاولون علاجها ومنهم السلطان قطز الذي قام بعزل المنصور وتسلطن بدله وسمى نفسه بالملك المظفر الذي قرر الخروج للمغول من الديار المصرية الى البلاد الشامية. وفي اثناء ذلك وصل رسول هولاكو اليه يطلب منه التسليم ويتوعده بالويل والندامة ان رفض ذلك، استدعى قطز الامراء وشاورهم في الامر وقال لهم ينبغي علينا ان نختار واحد من ثلاثة الصلح او القتال او الجلاء عن الوطن اما الجلاء فامر متعذر ذلك لانه لا يمكن ان نجد لنا مفراً الا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة، وقال احد الامراء لا يمكن مصالحتهم لانهم يغدرون بعهودهم وينقضونها اما باقي الامراء فقالوا: ليس لنا الطاقة ولا قدرة على مقاومتهم فأمر بما يقضيه رأيك فقال الرأي عندي هو ان نتوجه جميعا للقتال ثم اختلى قطز بالظاهر بيبرس* امير الامراء واستشاره في الموضوع فقال له: اني أرى ان نقتل الرسل ونقصد المغول فاستصوب قطز هذا الكلام وامر بقتل الرسل والمسير للقتال.

ان قتل رسل هولاكو هو لقطع الطريق للتراجع امام أي دعوة انهزامية هذا بالاضافة الى قيام قطز بمجموعة من الاجراءات للاستعداد لملاقاة جيش المغول اهمها ارسال قوة استطلاعية بقيادة بيبرس لمعرفة اخبار المغول وخططهم وابرز نقاط ضعفهم خصوصاً بعد ان غادر قسم من جيش هولاكو معه الى العاصمة قراقورم بعد ان وصله خبر وفاة اخيه منكو فاضطر الى تعيين صهره كيتو بوقا

(كتبغا) نائبا عنه في بلاد الشام وقائد للقوات المغولية فيها ومن الاجراءات الاخرى التي قام بها الملك قطز هو اعلان ما يشبه بالنفير العام وسخر كل امكانيات البلد لخدمة هذه الحملة وبث فيهم روح الجهاد واقنعهم ان النصر آت لاريب فيه ان هم توكلوا على الله بدأ السلطان قطز بالتوجه الى ارض المعركة وهو يقود الجيش بنفسه يساعده في ذلك قائده بيبرس الذي كان له دوراً حاسماً في المعركة فجمع قطز عساكره في مصر بعد ان انضم اليه عساكر من الشام والعرب والتركمان في حين سار بيبرس الى غزة التي كان فيها قسم من جيش المغول استطاع بيبرس القضاء عليهم.

اما القوة الرئيسية بقيادة قطز فقد اجتمعت بالمغول في منطقة عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان فاقتتلو قتالاً عظيماً فكانت النصرة للاسلام وهزموهم هزيمة نكراء وقتل قائد المغول كتبغا نوين وجماعة من بيته.

لو بحثنا في اسباب احراز النصر لوجدنا ان السبب الرئيسي هو القيادة الحكيمة المتمثلة بشخصية السلطان قطز وقائده بيبرس ووحدة الصف فيما بينهم وقراره الخروج بنفسه للقاء التتار على العكس من موقف الخليفة المستعصم بالله وابرز مستشاريه المنشقين تتحكم بهم الطائفية والمذهبية حتى في اخطر المواقف كما استفاد السلطان قطز بمبدأ الشورى في الامور الخطيرة والمصيرية من استخلاص الاراء والخروج بقرار حازم وصارم لا رجعة فيه مثل قراره قتل الرسل وهذا ايضا كان يفتقد اليه الخليفة المستعصم بالله وبما ان السلطان قطز قائد ذكي فأنه وجد أن مبدأ الهجوم هو خير وسيلة للدفاع مؤمنا بالحكمة التي تقول (ماغزى قوم في عقر دارهم الا ذلوا) لذلك فأنه لم ينتظر مجئ المغول الى بلاده بل قرر الذهاب اليهم وهذا اتاح له ان يختار لنفسه المكان والزمان المناسبين للمعركة فهما لهم دور كبير في تحقيق النصر على المغول في حين نجد ان الخليفة المستعصم بالله لا يشعر بوجود المغول الا حين دخل سهم من المغول الى احد شرفات قصره واصاب جارية له ترقص بين يديه. وقام السلطان قطز باستنفار الرعية مذكراً اياهم بالجرائم والمجازر التي ارتكبها المغول في البلاد الاسلامية من قتل وسبي وتخريب وحرق وان مصيرهم سوف يكون

هكذا ان لم يخرجوا للقتال، واستغل نقاط الضعف في جيش العدو عن طريق ارساله فرق استطلاعية وكان ابرزها غياب قائدها هولاكو مع قسم كبير من جيشه وجهل هؤلاء بجغرافية المنطقة كما ان قيادته للمعركة استندت على مجموعة خطط بارعة غاية في الدقة ومدروسة لا تصدر الا عن قائد عسكري محنك له باع طويل في الحروب وفي هذا الموقف الشديد الحافل بالخطر يظهر الرجال المخلصون المؤمنون الاقوياء فيتقدم احد القضاة الى السلطان قطز ليقول له كلمة الحق التي ترضي الله وينصحه بما يعود عليه وعلى الاسلام والمسلمين بالخير و البركة لم ينافقه بالموافقه على رأيه ولم يجعل من الظرف الدقيق الذي يمر به البلاد مبرراً لأرضاء الحكام والمسئولين على حساب الامة لاسلامية والموافقة على طلباتهم وتنفيذها مهما كان جورها وظلمها بل وقف وقال: (لابد ان تدفع انت وجميع الامراء والمماليك جميع ما تملكون من ذهب وغيره فاذا لم تكف هذه الاموال دعونا الناس الى الجهاد باموالهم اما ان يدفع الناس اموالهم وانتم تكنزون الذهب والفضة؟ فلابد ان تضربوا للناس المثل الاعلى).

وقد تقبل السلطان المؤمن هذه النصيحة بقبول حسن فأمر جميع الامراء من المماليك بجمع ما لديهم ففعلوا عند ذلك تسابق المسلمون الى المشاركة بكل ما يملكون من الاموال والانفس لانهم رأوا قيادتهم تضرب لهم المثل الاعلى في البذل والفداء. في حين نجد ان الخليفة المستعصم بالله عندما قبض عليه هولاكو طلب منه احضار جميع ما يملك فاحظر جميع الخزائن فلم يلتفت هولاكو خان اليها ومنحها كلها للامراء والحاضرين ثم قال للخليفة: (ان الاموال التي تملكها على وجه الارض ظاهرة لكن اذكر ما تملكه من الدفائن فأعترف بوجود حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر فحفروا الارض حتى وجدوه مليئا بالذهب الاحمر وكان كله سبائك تزن الواحدة مائة مثقال) فلو استغلها في تجنيد الجند وتسليحهم لما حدث للخلافة ما حدث.

ولم ينسى السلطان قطز الدعاء الى الله حتى وهو في اوج ساعات المعركة فكان يسمعه جنوده وهو يصرخ ويقول واسلاماه ثلاث مرات مما يثير الحماس فيه وفي الجنود وكان يدعوا الى الله ويقول: (ياالله انصر عبدك قطز على التتار) وعندما

استجاب الله له نزل من فرسه ومرغ وجهه بالارض وقبلها وصلى ركعتين شكر لله تعالى.

وهكذا هزم السلطان قطز المغول وحطم الاسطورة التي تقول انهم جيوش لا تقهر واثبت لكل العالم الاسلامي ان بالايمان والعزم والحكمة يتحقق النصر فلو ان قدر للخلافة العباسية ان تكون مثلما كان المصريون من الاستعداد والتدبير والتخطيط والتوكل ووحدة الكلمة والصف للتحقيق الظفر بالعدو وان لم يتحقق فأنها ادت ما عليها وستكون معذورة امام الله وامام رعيتها التي هي مستخلفة فيها.

وصف المؤرخون لغزو المغول البلاد الاسلامية

ان ماقام به المغول من المجازر البشرية سجلت في ذاكرة التاريخ حيث قام مؤرخينا بتدوين اعمال هؤلاء واصفين خروجهم بالحادثة العظمى والمصيبة الكبرى وخير من عبر عما كان يعانيه المسلمون من الالام ومحن في ذلك الوقت هو ابن الاثير بقوله: (لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارها لذكراها فأنا اقدم رجلاً واوخر اخرى فمن الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الاسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت امي لم تلدني ويالينتي مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا... فلو قال قائل ان العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى ادم الى الان لم يبتلوا بمثلها لكان صادق...وهؤلاء لم يبقوا على احد بل قتلوا النساء والرجال والاطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الاجنة...) هذا وان ابن الاثير مات من قبل ان يشهد باقي اعمالهم وخصوصا سقوط الخلافة.

اما السيوطي فيقول (هو حديث ياكل الاحاديث وخبر يطوي الاخبار وتاريخ ينسي التواريخ، نازلة تصغر كل نازلة وفادحة تطبق الارض وتملؤها ما بين الطول والعرض).

ومنهم من وصف سنة ٦٥٦هـ وهي سنة سقوط الخلافة بانها السنة المصيبة باعظم المصائب المحيطة بما فعلت من العائب المقتحمة اعظم الجرائم الواثبة على اقبح العظائم، الفاعلة بالمسلمين كل قبيح وعار، النازلة عليهم بالكفار المسمين بالتتار حادثة بغداد عبرة تعتبر بها الاجيال وتشخص عندها الابصار ليجري

المسلمون على ممر الزمان ودموعهم دما وليدري المؤرخون بانهم ماسمعوا بمثلها واقعة جعلت السماء ارضاً والارض سما.

اما ابن الفوطي يصف زحف الوحوش التتار بقوله (تقدموا كجراد منتشر فكانت غارتهم فتنة عظيمة ومحنة كبيرة هزت العالم الاسلامي هزاً عنيفاً تركت المسلمين مبهوتين مشدوهين استولى الرعب والخوف على العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه وغلب على الناس اليأس والتشاؤم فكانوا يعتبرون التتار بلاء سماويا ومقاومتهم مستحيلة وانهزامهم فوق القياس حتى ساد المثل (اذا قيل لك ان التتار انهزمو فلا تصدق) فكل بلاد او دولة توجهوا اليها عرف انها ابيدت وخربت ولم يبق فيها شيء من مقدسات المسلمين الا وانتهكت حرمتها فكان اتجاه التتار الى جهة يرادف معنى التدمير والابادة والذلة وانتهاك الاعراض.

في حين نجد بارتولد يحاول قدر الامكان تقليل الاثار السيئة التي خلفها المغول في حضارة المشرق الاسلامي.

ولم يكتفي بارتولد بذلك بل نجده يتحامل على كل من يكتب حقائق ما ارتكبه المغول بما فيهم بعض المستشرقين امثال دوسون مؤلف (كتاب تاريخ المغول) حيث قال عنه انه لا يرى في تاريخ المغول سوى (لوحة من الوحشية) فقد حصر نفسه في تصوير الجوانب الرهيبة والسلبية من تاريخ المغول. ان بارتولد يبالغ في تقيمه الانجازات المغولية في المنطقة نتيجة تحيزه الواضح خلال كتاباته وهذه ابرز الاخطاء التي وقع بها نتيجة لزياراته المتعددة لسكان هذه المناطق فضلا عن ردة فعله على كتابات المستشرقين الاوربيين الذين هاجموا افعال الترك والمغول وقللوا كثيرا من دورهم الحضاري.